

جدلية الشكل والمضمون في النقد العربي التأصيل والتطور والاتجاهات

أريج محمد طيب خطاب^{1*}، أحمد الصغير محمد أمين آل تمام²
¹ قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة عمر المختار، بنغازي، ليبيا.
² باحث أكاديمي في النقد والأدب العربي
 *البريد الإلكتروني (للباحث المرجعي): arej.khattab@omu.edu.ly

The Dialectics of Form and Content in Arab Criticism: Origins, Development, and Trends

Areej Muhammad Tayyab Khattab^{1*}, Ahmed Al-Saghir Mohammed Amin Al-Tamam²

¹Department of Arabic Language, College of Arts, Omar Al-Mukhtar University, Libya.

²Academic Researchers in Arab Criticism and Literature.

Received: 27-03-2025; Accepted: 12-05-2025; Published: 04-06-2025

الملخص

تُعد قضية الشكل والمضمون من أقدم القضايا الفكرية والنقدية، وتضرب بجذورها في الفلسفة والفكر الإنساني عمومًا. وقد تبلورت هذه القضية في النقد العربي كامتداد لمسألة "اللفظ والمعنى"، وتعددت تسمياتها مع بقاء جوهرها واحدًا. يُعرّف "الشكل" عمومًا بالصورة الخارجية أو طريقة التعبير، بينما "المضمون" هو المحتوى أو المعنى. ينقسم النقاد بشأن التفضيل بينهما إلى ثلاث اتجاهات رئيسية: أنصار المضمون الذين يرون المعنى أعلى قيمة (مثل ابن جني)، وأنصار الشكل الذين يؤكدون على أهمية الصياغة واللفظ (مثل الجاحظ)، وأنصار الموائمة الذين يرون أن الشكل والمضمون كيان واحد لا ينفصلان (مثل ابن طباطبا والجرجاني). يؤكد البحث أن الشكل والمضمون مترابطان بشكل وثيق في العمل الأدبي، وأن أي تغيير في أحدهما يؤثر حتمًا على الآخر، مما يجعل هذه القضية من أهم القضايا الجوهرية في النقد الأدبي.

الكلمات الدالة: الشكل، المضمون، النقد العربي، اللفظ والمعنى، نظرية المعرفة، فلسفة الظواهرات، النقاد العرب، أرسطو، الجاحظ، ابن طباطبا، عبد القاهر الجرجاني.

Abstract

The issue of form and content is one of the oldest intellectual and critical issues, deeply rooted in philosophy and human thought in general. This issue crystallized in Arabic criticism as an extension of the issue of "word and meaning." Its names have varied, but its essence remains the same. "Form" is generally defined as the external image or method of expression, while "content" refers to the substance or meaning. Critics are divided regarding the preference between them into three main trends: supporters of content, who view meaning as of higher value (such as Ibn Jinni), There are also proponents of form who emphasize the importance of formulation and expression (such as al-Jahiz), and proponents of harmony who view form and content as a single, inseparable entity (such as Ibn Tabataba and al-Jurjani). The research confirms that form and content are closely interconnected in a literary work, and that any change in one inevitably affects the other, making this issue one of the most fundamental in literary criticism.

Keywords: Form, content, Arabic criticism, word and meaning, theory of knowledge, philosophy of phenomena, Arab critics, Aristotle, Al-Jahiz, Ibn Tabataba, Abdul Qaher Al-Jurjani..

المقدمة:

تُعد قضية الشكل والمضمون من القضايا المحورية التي شغلت الفكر الإنساني على مر العصور، وتتجلى أهميتها في مختلف ميادين المعرفة، من الفلسفة والجمال إلى النقد الأدبي والفنون. هي ليست مجرد ثنائية نقدية عابرة، بل هي جوهر لفهم كيفية إدراكنا للعالم وتعبيرنا عنه، وكيفية بناء الأعمال الفنية والأدبية وتلقيها. في الأدب، تتجسد هذه القضية في العلاقة الجدلية والتكاملية بين الألفاظ والتراكيب اللغوية، الإيقاع والموسيقى، والصور البيانية (التي تشكل مجتمعة "الشكل") من جهة، وبين المعاني والأفكار والمشاعر والرؤى الفلسفية والاجتماعية التي يحملها العمل (التي تمثل "المضمون") من جهة أخرى. لقد انقسم النقاد والفلاسفة منذ القدم حول الأولوية التي يجب إعطاؤها لأحد طرفي هذه الثنائية، فمنهم من رأى في الشكل الوعاء الجمالي الذي لا يمكن إدراك المضمون بدونه، بل هو الذي يمنح الحياة والخلود. ومنهم من اعتبر المضمون هو القيمة الحقيقية التي يسعى الأدب لتبليغها، وهو الرسالة والهدف الأساسي من أي إبداع. بينما ذهب فريق ثالث إلى ترابطهما الوثيق واعتبارهما وجهين لعملة واحدة لا يمكن فصلهما، وأن كليهما ضروري لبناء العمل الفني المتكامل.

يهدف هذا البحث إلى استقصاء الجذور التاريخية والفلسفية لقضية الشكل والمضمون في الفكر العربي، مع التركيز على تطورها من مفهوم "اللفظ والمعنى" الذي هيمن على النقد القديم، إلى مصطلحاتها المعاصرة الأكثر شمولية. كما سيتناول البحث آراء النقاد العرب القدماء والمحدثين حول هذه القضية، مصنفًا إياهم ضمن الاتجاهات الثلاثة الرئيسية: أنصار المضمون (المعنى)، أنصار الشكل (اللفظ)، ومن رأوا الموازنة والتكامل بينهما. وسيسلط الضوء على أبرز الحجج والبراهين التي ساقها كل فريق لدعم موقفه، مع تحليل الخصائص والسمات التي وضعها النقاد لجودة كل من الشكل والمضمون، وكيف أن هذه المعايير عكست فهمهم العميق للتكامل بينهما. وأخيرًا، سيناقش البحث التفاعل المتبادل بين الشكل والمضمون، وكيف يؤثر كل منهما في الآخر ويسهم في تشكيل المعنى الكلي للعمل الأدبي، مؤكدًا على أن فهم هذه العلاقة الجدلية لا يزال أساسًا لأي تحليل نقدي عميق وفاعل، بل هو مفتاح لتقدير القيمة الجمالية والإنسانية للأدب.

مدخل: الجذور الفلسفية والتاريخية للقضية وتأصيلها

ربما كانت قضية الشكل والمضمون هي أقدم قضايا النقد العربي، لا بل ربما هي أقدم قضايا النقد عامة، عربيًا كان أو غير عربي، وقد يتجاوز الأمر قضايا النقد لتكون قضية الشكل والمضمون -في جوهرها- أعرق أو من أعرق قضايا الفلسفة والفكر الإنساني. هذا التأصيل العميق يعود إلى جذور فلسفية وعقدية ضاربة في القدم، وربما نشأت مع نشأة الحياة الأدمية على الأرض، وذلك -حسب رواية أهل السير والتاريخ- أن حواء ولدت في بطن واحد غلامًا وجارية: قابيل وإقليما، ثم ولدت في البطن الآخر غلامًا وجارية: هابيل وليوذا، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل، فلما أدركا قال آدم: -عليه السلام- ليتزوج كل واحد منهما أخت الآخر، قال قابيل: لكن يتزوج كل واحد منهما أخته التي ولدت معه... إلى أن يصل الأمر أن يقتل قابيل أخاه هابيلًا⁽¹⁾

. وذلك ما يمكن عده خلأً على الحُسن والشكل الجمالي، أما من جهة المضمون فكلتاها أنثى، سوف تتزوج وتلد وتؤدي مضمون ما ستؤديه الأخرى.

هذه القصة، وإن كانت دينية، إلا أنها تلقي بظلالها على الفهم الأولي للتفاضل القائم على المظهر الخارجي (الشكل) رغم وحدة الوظيفة أو الجوهر (المضمون). إنها تعكس الميل البشري الفطري للتمييز بناءً على الظاهر، حتى لو كان الجوهر واحدًا.

كما أن حضارات المصريين القدماء كانت ترى أن الجسد هو التعبير المرئي عن الروح. فالجسد (الشكل) هو المادة المتجسدة التي تدل على الروح (المضمون) ولا يمكن إدراك عالم الفكر أو الروح بدون مادة تجسده وتدل عليه⁽²⁾.

هذا الربط بين المادة والروح، أو الظاهر والباطن، يمثل بعداً فلسفياً قديماً لقضية الشكل والمضمون. الفراعنة، مثلاً، كانوا يبنون الأهرامات والمعابد الشاهقة كأشكال مادية عظيمة لتعبر عن معتقداتهم الروحية والفلسفية حول الخلود والحياة الآخرة. فالشكل المعماري هنا ليس مجرد بناء، بل هو تجسيد لمضمون عقدي عميق.

أدرك بعض النقاد المعاصرين العلاقة الوطيدة بين قضية الشكل والمضمون والقضايا الفلسفية الأعمق، فيرى عبده بدوي أن هذه القضية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنظرية المعرفة، وبمشكلة ما إذا كان الموضوع نتاج الذات أم منفصلاً عنها، وهو ما يُعرف في الفلسفة بعلاقة الذات بالموضوع، وقد جاءت الفلسفات الحديثة، مثل الظاهريات⁽³⁾ التي أسسها إدموند هوسرل، لتؤكد فكرة الإحالة المتبادلة بين الذات والموضوع، حيث لا وجود للذات إلا إذا كانت محيلة للموضوع والعكس صحيح⁽⁴⁾.

هذه العلاقة التكاملية بين الذات والموضوع في الفلسفة، حيث يتشكل الوعي من خلال علاقته بالظواهر، تشبه إلى حد كبير العلاقة بين الشكل والمضمون في الأدب، حيث لا يمكن لأحدهما أن يوجد أو يُدرك بمعزل عن الآخر. فالمعنى يظهر من خلال الشكل الذي يجسده، والشكل يكتسب دلالاته من المعنى الذي يحتويه.

ومن أقوى الأدلة على هذا التشابك الفلسفي والأدبي ما فعله الفيلسوف اليوناني أرسطو، حيث خصص المقالة الرابعة من كتابه "الخطابة" لهذه القضية، متحدثاً عن الألفاظ واختيارها وما يناسبها من معان وموضوعات. فقد تناول أرسطو فصولاً بعنوان "في التحسينات واختيار الألفاظ للتعبيرات" و"في إشباع الكلام في اجتناب ما يهجن من اللفظ واختيار ما يحسنه وما يحسن في الشعر ولا يحسن في الخطابة وما يحسن فيهما معاً"⁽⁵⁾.

هذه الفصول تظهر بوضوح اهتمام أرسطو ليس فقط بالمعنى الذي يجب إيصاله، بل أيضاً بالطريقة التي يُصاغ بها هذا المعنى، أي الشكل. ومما يقوي هذا الدليل بشكل كبير أن من لخص وشرح كتاب أرسطو هذا هو الفيلسوف العربي الكبير ابن سينا، في كتابه "الشفاء"، مما يدل على استمرارية هذا الاهتمام الفلسفي العميق بالقضية في الفكر العربي، وتأثر الفلاسفة العرب بالفلسفة اليونانية في هذا الجانب. هذا التأثير يبرز عالمية القضية وتعدد أبعادها.

تعدد المصطلحات وتطور المفهوم في النقد العربي

تُعد قضية الشكل والمضمون تطوراً طبيعياً لما عُرف في النقد العربي القديم بقضية "اللفظ والمعنى". ويؤكد عبده بدوي أن المصطلحات تعددت حول هذه القضية، لكنها في جوهرها متقاربة ولا تتنافر، وتشمل "اللفظ والمعنى"، "الشكل والمادة"، "المبنى والمعنى"، "الشكل والموضوع"، "الشكل والمحتوى"، "الإطار والمضمون"، "الشكل الداخلي والشكل الخارجي"، "الصورة والمعنى"، "النظم والأسلوب"، "الصورة والفكرة"، و"الألفاظ والأشياء". وتشير هذه المصطلحات المتعددة، على اختلافها الظاهري، إلى قضية واحدة محورية هي ما يُصطلح عليه في النقد المعاصر بقضية الشكل والمضمون. هذا التعدد في المصطلحات يعكس ثراء النقاش وتعمقه في جوانب مختلفة من القضية، وتطور الوعي النقدي عبر العصور⁽⁶⁾.

يُعرف "المعجم الأدبي" الشكل بعدة مداخل، مما يعكس تعدد زوايا النظر إليه وتطوره في الفكر النقدي: * الصورة الخارجية للشيء مقابل المادة التي يتركب منها. هذا التعريف بدائي ولكنه يضع الأساس للتمييز بين المظهر والجوهر، حيث يُنظر إلى الشكل كوعاء خارجي.

* في الأدب: طريقة التعبير عن الفكرة أو الأسلوب أو المبنى، مقابل المعنى أو الفكرة المراد الإبانة

عنها. هنا ينتقل المفهوم إلى حيز الإبداع الأدبي، ويركز على الجانب الفني والتعبيري.

* فنيًا: يتخذ الموضوع الواحد أشكالًا متنوعة تبعًا للزمان والمكان والفنان، مع اتجاهين أساسيين: أحدهما يمثل الموضوع بأسلوب حيادي وموضوعي (الكلاسيكية)، والآخر يتأثر بالموضوع وجدانيًا ويبرزه من خلال عواطف الفنان وانطباعاته (الرومانسية). هذا التعريف يربط الشكل بالمدارس الفنية المختلفة وبفلسفة الإبداع، حيث يؤثر السياق والذات المبدعة في طبيعة الشكل.

* (الشكلية): مذهب فني وأدبي يرى أن قيمة العمل الفني تتمثل في عناصر صياغته وأصالته أسلوبه، ويهمل المحتوى أو يقلل من شأنه. هذا التعريف يشير إلى مدرسة نقدية كاملة قامت على تمجيد الشكل، وهي المدرسة الشكلية الروسية التي سارت على نهج "الفن للفن".⁽⁷⁾

التعريفان الأول والرابع تقليديان إلى حد كبير ويعكسان رؤية قديمة وحديثة، بينما التعريف الثالث متأثر بمذهبين فلسفيين هما الواقعية والمثالية⁽⁸⁾، وكلاهما يهتم بالشكل وإن كان بمنظور مختلف. أما التعريف الأخير فيمثل المدرسة الروسية الشكلية التي أعطت الأولوية في نقدها لجانب الشكل على حساب المضمون، ودرسوا "أدبية الأدب" في ذاتها، أي ما يجعل النص أدبيًا بغض النظر عن رسالته.

ويُعرف "المعجم الأدبي" المضمون فنيًا بأنه "محتوى أو معنى يؤديه المبنى أو الشكل، والمعبر عنه أدبيًا بالألفاظ وعبارات نثرًا أو شعرًا"⁽⁹⁾.

هذا التعريف يضع المضمون في موقع المعنى، ويكاد يسوي بين الشكل واللفظ في عملية التعبير، مما يؤكد على العلاقة الوثيقة بينهما. فالمضمون هو المادة الخام التي تتشكل عبر الشكل.

تختلف تعريفات الشكل والمضمون بين النقاد العرب، لكنها تدور في فلك المعاني المتقاربة التي تشمل عناصر الشكل والموضوع جميعها، وإن اختلفت في درجة التفصيل أو التركيز. فقد ذكر بدوي طبانة أن الشكل هو "الوعاء، أو القالب الذي تصب فيه المادة، وهي الموضوع الأدبي بكل مقوماته المعنوية، وبكل ما يحتشد فيه من الطاقات الفكرية أو العاطفية، وعلى ذلك يشمل الإطار كل العناصر الخارجية من وزن وقافية وصياغة وأسلوب وصور بيانية وموسيقى داخلية وخارجية"⁽¹⁰⁾.

أما المضمون فهو "كل ما تحتويه الأشكال، وما يحتشد فيها الأفكار العقلية والمعاني العاطفية بصورها وأخيلتها، وهو الجوهر والرسالة"⁽¹¹⁾.

فالشكل هو الصورة التي يبرز فيه العمل، هو الرداء أو الإطار الخارجي، أو الطريقة التي يؤدي بها العمل.

وأما المضمون فهو المحتوى أو القيمة الفكرية التي يحملها العمل.

وتدور تعريفات النقاد حول هذه المعاني المتقاربة التي تشمل عناصر الشكل والموضوع جميعها، وإن اختلفت في درجة التفصيل أو التركيز على جانب دون آخر، مما يعكس مرونة المفهوم واتساع دائرته.

موقف النقاد من قضية الشكل والمضمون: مدارس واتجاهات.

يمكن تقسيم النقاد والعلماء حول قضية الشكل والمضمون إلى ثلاثة فرق رئيسية، كل منها تبني موقفًا مختلفًا حول الأولوية والقيمة، مما أثار النقاش النقدي والفلسفي:

1. أنصار المضمون (المعنى): أولوية الفكرة والرسالة

يميل هذا الفريق إلى أن المضمون (المعنى) هو القيمة العليا، وأنه أعلى قيمة من الشكل (اللفظ) الذي يخدمه. يرى ابن جني، على سبيل المثال، في كتابه "الخصائص"، أن عناية العرب بالألفاظ وتجويدها إنما هي خدمة للمعاني وتنويه بها، فالألفاظ أوعية للمعاني، والعناية بالوعاء هي عناية بما يحتويه. فهو يؤكد على أن الغاية من الكلام هي إيصال المعنى بوضوح وفعالية، والشكل مجرد وسيلة لتحقيق هذه الغاية.⁽¹²⁾

ويؤكد ابن الأثير في "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" على أن المعاني أقوى وأكرم وأشرف عند العرب من الألفاظ، وأن تحسين الألفاظ جاء لإظهار الأغراض والمعاني، فاللفظ تابع للمعنى وخدام له. ويضيف أن المعاني هي الأصل، وأن الألفاظ تبع لها، وأنها كالأرواح للمعاني والأجساد للأرواح⁽¹³⁾. مما

يعكس رؤية تكاملية وإن كانت تميل إلى أولوية المضمون. فالمعاني هي التي تمنح الألفاظ قيمتها وحيويتها. يُلاحظ أن أنصار المضمون، على الرغم من إعطائهم الأولوية للمعنى، لم يهملوا جانب الشكل إهمالاً كلياً. بل رأوا أن العناية به تأتي بعد الاهتمام بالمضمون، فالصورة وسيلة لإبراز المحتوى، والغاية هي النفع والخير والفائدة التي يحققها المعنى. فالشكل الجيد ضروري، لكنه ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة لغاية أسمى.

وقد أشار بعض الدارسين المحدثين، مثل عبد الحكيم راضي وعبد المنعم تليمة، إلى أن النقد العربي ركز بشكل أكبر على الصياغة اللفظية، مع قبول الاشتراك في المعاني وتكرارها⁽¹⁴⁾. واستدلوا بعبارة الجاحظ الشهيرة "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي..."⁽¹⁵⁾. إلا أن هذا الرأي يصعب قبوله بشكل مطلق في ظل النصوص التراثية الكثيرة التي تدل على اهتمام واسع بالمعنى ومضمون الخطاب. فالمرزوقي، على سبيل المثال، في "شرح ديوان الحماسة"، يذكر اتجاهًا إبداعيًا معروفًا باسم "أصحاب المعاني" يهتمون بالفكر والعقل ويفيدون الناس عن طريق العقل أكثر من الكلام، مؤكداً على أن المعنى هو الغاية المنشودة⁽¹⁶⁾.

كما بين ابن رشيق القيرواني في "العمدة في صناعة الشعر ونقده" أن هناك مبدعين يؤثرون المعنى على اللفظ، مثل ابن الرومي وأبي الطيب المتنبّي، ولا يبالون بهجنة اللفظ أو قبحه ما دامت معانيهم جيدة ومتميزة، ويربط ذلك بكونهم "مطبوعين" أي يغلب عليهم الإلهام والمعنى الصادق على الصناعة اللفظية⁽¹⁷⁾.

2. أنصار الشكل: جمال الصياغة وفنية التعبير

ذهب هذا الفريق إلى أن الشكل (اللفظ) أعظم قيمة وأعلى من المضمون (المعنى)، وأنه هو الذي يحدد جمال العمل الأدبي وقيمه الفنية. كان معتمداهم غالباً نص الجاحظ الشهير الذي سبقت الإشارة إليه: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي... وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج... وإنما الشعر صناعة..."⁽¹⁸⁾.

يرى بدوي طبانة أن الجاحظ من خلال هذا النص وغيره، يرى أن جودة المعنى لا تدل على عبقرية الأديب بمقدار ما يدل عليها الشكل وسلامة الصياغة وبلاغة الأداء⁽¹⁹⁾.

ووافق أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين: الكتابة والشعر" الجاحظ في رأيه، مؤكداً أن الخطب الرائعة والأشعار المتميزة لم تُعمل فقط لإفهام المعاني، بل لدلالة حسن الكلام على فضل قائله وحذقه بصناعته⁽²⁰⁾. فالصياغة الجيدة والأسلوب البديع هما معيار الجودة الأدبية والتميز الفني، وهما اللذان يرفعان من شأن الأديب.

أما أبو علي المرزوقي فقد عرض لأهمية اللفظ وضرورة العناية به، مقسماً الناس (النقاد والمبدعين) إلى ثلاث فئات بناءً على درجة اهتمامهم بالشكل:

* الفئة الأولى: ترى أن جودة الألفاظ وتميزها يجعلها مستساغة لذيدة في السمع وسهلة الفهم ومؤثرة في النفس، وهو اهتمام بالجمال اللفظي الأساسي.

* الفئة الثانية: تزيد على ذلك بضرورة تجويد مقاطع الكلام وتحسين مطالعه، واختيار الألفاظ الأكثر دقة وملائمة للمعاني، وهو اهتمام بالبناء التركيبي والانسجام اللفظي.

* الفئة الثالثة: تزيد بتزيين الألفاظ وتحليتها عن طريق الترصيع والتسجيع والجناس وغيرها من وجوه البديع والصناعة اللفظية، أي أنها تهتم بالزينة اللفظية البلاغية التي تزيد من بهاء الشكل⁽²¹⁾.

وقد رأى إحسان عباس أن المرزوقي كان الأكثر بصيرة في إدراكه لتدرج أنصار النظم (الشكل) إلى هذه الدرجات الثلاث، مما يدل على عمق فهمه لتعقيدات الصياغة⁽²²⁾.

إلا أن ابن رشيق القيرواني، القريب من عصر المرزوقي، قدم تفصيلات أكثر لهذه القضية، مقسماً من يؤثر اللفظ على المعنى إلى فرق بناءً على أسلوبهم:

* الفرقة الأولى: قوم يذهبون إلى فخامة الكلام وجزأته على مذهب العرب من غير تصنع، مثل قول بشار بن برد، الذي عرف بجمال صياغته وقوة ألفاظه.

* الفرقة الثانية: أصحاب جلبة وقعقة بلا طائل معنى إلا القليل النادر، مثل أبي القاسم بن هاني، أي يهتمون بالصوت اللفظي والرنين دون عمق المعنى، وهو ما يمكن وصفه بالاهتمام المبالغ فيه بالشكل على حساب المضمون.

* الفرقة الثالثة: ومن ذهب إلى سهولة اللفظ وعني بها، واغتر له فيها الركافة واللين المفرط، مثل أبي العتاهية وعباس بن الأحنف، الذين ركزوا على البساطة والوضوح في التعبير حتى لو أثر ذلك على جودة الصياغة (23).

وقد خلا كلام المرزوقي من التطبيق العملي، بينما جاء كلام ابن رشيق مع ضرب الأمثلة وتحليلها، مما يجعله أكثر إقناعاً وفائدة للدارس. كما أن ابن رشيق كان مبدعاً قبل أن يكون ناقدًا، مما يشهد بأن استنتاجه جاء من تجارب عملية وخبرة ذاتية في صناعة الشعر. كما يختلف تقسيم ابن رشيق الأفقي عن تقسيم المرزوقي الرأسي التصاعدي، حيث يركز ابن رشيق على أنواع مختلفة من الاهتمام بالشكل بناءً على سمات شعرية محددة.

وقد أدرك ابن رشيق العلاقة الفلسفية بين الشكل والمضمون بعمق، فمثل العلاقة بين اللفظ والمعنى بالعلاقة بين الروح والجسد، حيث يضعف اللفظ بضعف المعنى ويقوى بقوته، ولا يمكن للفظ أن يختل إلا من جهة المعنى، كما أن المعنى لا يوجد بلا لفظ. هذا التشبيه البليغ يدل على فهمه لوحدة الكيان الأدبي وعدم إمكانية فصل مكوناته.

وفي النقد الحديث، ينقل محمد عبد المنعم خفاجي عن شيلر قوله: "الشكل هو كل شيء والمعنى ليس شيئاً مذكوراً" (24).

وهذا موقف متطرف يؤكد على الأولوية المطلقة للشكل في العمل الفني. كما ظهرت مدرسة نقدية كاملة، هي مدرسة الشكلانيين الروس، التي ركزت على العمل الأدبي بعيداً عن مضمونه ومؤثراته الخارجية (التاريخية، الاجتماعية، النفسية)، معالجة وظائف عناصره الداخلية وميكانيزمات الصياغة واللغة. كان هدفهم دراسة "أدبية الأدب" في ذاتها، أي ما يجعل النص أدبياً (25).

ومن الأمثلة على المبدعين العرب الذين أولوا عناية فائقة للشكل زهير بن أبي سلمى، الذي كان يُعرف بشاعر "الحوليات" لأنه كان يصنع القصيدة ثم ينقحها ويثقفها ويهذبها لمدة عام كامل قبل أن يقدمها، اهتماماً منه بجمال الصياغة ودقة التعبير وكمال الشكل.

وربما كان من المهم في هذا الصدد التفريق بين نوعين من الكتابة، هما: الكتابة الأدبية التي تعنى في الجانب الأول بتهديب النفس وإمتاعها، وذلك محل عنايتها الأولى بغض النظر عن المحتوى، الذي قد يكون واقعياً، لا، بل من الأغلب أن يكون خيالياً إبداعياً، وهذا النمط من الكتابة يركز على الشكل ويعنى به أكثر من تركيزه وعنايته بالمضمون.

أما النوع الثاني من الكتابة فهو الكتابة العلمية التي تركز على المعلومة المقدمة، بغض النظر عن الطريقة التي تقدم بها، لا بل إنها تعتمد إلى أقصر الطرق وأشدّها اختصاراً، إذ غرضها الأساسي إيصال العلم، فهذا النوع من الكتابة يهتم أكثر ما يهتم بالمحتوى أو المضمون، بغض النظر عن الصياغة أو الشكل الذي يقدم به العلم، فالشكل يمثل مرتبة متأخرة عن المضمون.

3. الذين وائمو بين الشكل والمضمون: التكامل والوحدة العضوية:

ذهب هذا الفريق إلى ضرورة الموائمة والتكامل بين الشكل والمضمون، مؤكدين أنه لا داعي للتفرقة بينهما، فهما ككائن واحد، لا ينفصل أحدهما عن الآخر إلا في نطاق البحث والدرس والتنظير الأكاديمي، كأنهما جسد وروح لعمل فني واحد. فهم يرون أن الشكل هو الجلد الطبيعي للمضمون الذي لا يمكن أن ينفصل عنه ما دام حياً، والمضمون هو الروح والجوهر الذي يقوم به هذا الشكل، وانفصالهما يعني موت

كليهما وفقدان العمل الأدبي لفاعليته وقيمتيه وجماله. قال ابن طباطبا في كتابه "عيار الشعر"، موضعاً هذه العلاقة الجدلية: "كم من معنى حسن شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه" (26). وهذا يؤكد أن الشكل والمضمون مرتبطان ارتباطاً وثيقاً، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، ولا يمكن أن تتوافر الجودة في أحدهما دون الآخر. فالمعنى الجيد يحتاج إلى صياغة جيدة ليظهر جماله ويؤثر في المتلقي، والصياغة الجيدة تفقد قيمتها إذا كان المعنى رديئاً أو تافهاً، حيث يصبح مجرد زخرفة بلا روح. ولم يكن عبد القاهر الجرجاني في كتاباته متفرداً بالقول بالوحدة بين المعنى والتركيب النحوي، وإنما كان هذا اتجاهًا نقدياً كبيراً.

وهذا الاتجاه يقارب بذلك القول بالوحدة بين المضمون والشكل. وقد توصل هذا الاتجاه إلى ذلك برفضه للقيمة المعنوية للفظ مفردة بمعزل عن السياق، وبتأكيد على تبلور المعنى الخاص داخل السياق المنظوم الذي يشكله النظم والتراكيب. كما لم يوافق على وجود المعاني عارية من الألفاظ، وإن أقر بوجود معان عامة راسخة في الأذهان، إلا أن هذه المعاني لا تتجسد وتتأثر إلا من خلال صياغة شكلية محددة. والجرجاني يعتبر رائداً في نظرية النظم التي تؤكد على أن جمال الكلام يكمن في طريقة تنظيم الألفاظ وتآليفها، وليس في الألفاظ المفردة أو المعاني المجردة، وأن هذا التنظيم هو الذي يخلق المعنى الجمالي والدلالي. وهذا المنهج يؤسس لفهم عميق لتكامل الشكل والمضمون.

خصائص الشكل والمضمون في النقد الأدبي: معايير الجودة

وضع النقاد ملامح وسمات لجودة المضمون أو الشكل، وقد وضحا المرزوقي في نقاط محددة يمكن اعتبارها معايير نقدية للعمل الأدبي الجيد، وهي تعكس رؤية متوازنة تجمع بين جانبي القضية:

- * شرف المعنى وصحته: بحيث يسهل فهمه ويتقبله العقل السليم، وأن يكون عميقاً وذو قيمة فكرية أو عاطفية أو أخلاقية، وأن يكون غير مبتذل أو سطحي.
- * جزالة اللفظ واستقامته: بأن يكون بعيداً عن الهجنة (اللفظ الغريب أو المستكره أو الذي لا يتناسب مع الذوق العام) ومتوافقاً مع ما يجاوره من ألفاظ، وأن يكون له رنين وجمال صوتي، ويسهل النطق به.
- * الإصالة في الوصف: ومقايسه أن يكون متميزاً يصيب المعنى المراد بدقة وإحكام، وأن يكون الوصف مبتكراً وغير مكرر، وأن يضيف جديداً للمتلقي.
- * المقاربة في التشبيه: بحيث يكون واضحاً فيه وجه الشبه ومتضمناً لأخص صفات المشبه به، وأن يكون التشبيه مناسباً وغير متكلف، ويساهم في إيضاح المعنى أو تجميله.
- * اللحام أجزاء النظم والتأملها على تخير من لذيذ الوزن: بأن يكون متوافقاً متناسقاً سهلاً غير معقد يبدو كأنه وحدة واحدة مترابطة لا تتفكك، وأن يكون الوزن ذا موسيقى جميلة تؤثر في المتلقي وتطرب الأذن، وتخدم المعنى.

* مناسبة المستعار منه للمستعار له: بأن يكون شديد التقارب في وجه الشبه بين المشبه والمشبّه به، بحيث يؤدي الاستعارة معناها بوضوح وقوة، وتضيف بعداً جمالياً ودالياً للنص.

* مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما: ومعناه مناسبة اللفظ للمعنى، بحيث يكون هو أجود الألفاظ للدلالة على هذا المعنى، وأن تكون القافية طبيعية وغير متكلفة وتخدم المعنى ولا تبدو كأنها مفروضة على النص. (27).

ومن ثمّ يتبين أنّ قضية الشكل والمضمون من أهم القضايا النقدية لأنها ليست في تفسير ظاهرة جزئية، ولا في مشكلة عابرة، وإنما هي من صميم قضايا النقد الأدبي حين نتحدث عن واحدة من أكبر المشكلات النقدية وهي مشكلة الشكل والمضمون، أو مشكلة أصحاب اللفظ وأصحاب المعنى، وما يتفرع عنها من مسائل فرعية أخرى تتعلق بالبلاغة، والنظم، والصورة الشعرية، والأسلوب، والموسيقى الداخلية والخارجية. فهذه القضية تشكل محوراً رئيسياً في فهم العمل الأدبي وتقييمه.

التأثير والتأثر بين الشكل والمضمون: علاقة عضوية لا تنفصم

الشكل والمضمون في العمل الفني هما كائن واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر إلا في نطاق البحث والدرس والتنظير الأكاديمي، كأنهما روح وجسد لعمل فني متكامل. وما نسميه (شكلاً) ما هو إلا اختيار معين لتنظيم مادة المضمون وتقديمها بطريقة فنية مؤثرة. وبالتالي، فإن العلاقة بينهما هي علاقة تفاعل وتأثر متبادل، حيث يغذي كل منهما الآخر ويشكله:

* المضمون يحدد الشكل: إذا حدث تغيير في مادة المضمون، أي في الأفكار أو العواطف أو الرؤى التي يريد المبدع إيصالها، فستحتاج حتماً إلى شكل أو أشكال جديدة لتعبر عنها بفعالية. فالمعنى الجديد يتطلب غالباً صياغة جديدة تبرزه. على سبيل المثال، ظهور أفكار اجتماعية أو سياسية جديدة قد يؤدي إلى ظهور أشكال أدبية مبتكرة (مثل الرواية الواقعية أو الشعر الحر أو مسرح العبت) لتستوعب هذه الأفكار وتعبر عنها بما يتناسب معها. الفكر التحرري في العصور الحديثة على سبيل المثال، لم يكن ليجد تعبيره الكامل في أشكال شعرية كلاسيكية جامدة، بل احتاج إلى أشكال أكثر مرونة وتحرراً.

* الشكل يؤثر في المضمون ويشكله: كذلك، فإن العبت في الشكل أو تغييره سيؤثر في المضمون وينتج إنتاجاً يبتعد أو يقترب حسب درجة التغيير في الشكل. فالشكل ليس مجرد وعاء سلبي، بل هو جزء فاعل في تشكيل المعنى وفي كيفية تلقيه وتأويله. فإذا أخذ الشاعر بوزن القصيدة، أو استخدم ألفاظاً غير مناسبة أو تراكيب ركيكة، فإن ذلك سيؤثر سلباً على المعنى الذي يقصده، وقد يشوهه أو يضعف تأثيره، بل قد يفقده معناه تماماً. مثال ذلك، القصيدة التي تعتمد على الإيقاع الداخلي والصور الشعرية المكثفة قد تحمل معاني أكثر عمقاً وإيحاءً من مقال نثري مباشر يتناول نفس الموضوع، لأن الشكل هنا يضيف أبعاداً دلالية وجمالية.

* الشكل كمفتاح للمضمون: في كثير من الأحيان، يكون الشكل هو المدخل الأول للمتلقي إلى العمل الأدبي. فالوزن والقافية، والصور البلاغية، والأسلوب، هي عناصر تجذب المتلقي وتجعله يستسيغ النص، ومن خلالها يصل إلى عمق المضمون. العمل الذي يفتقر إلى الشكل الجذاب قد لا يلقى قبولاً، حتى لو كان مضمونه قيماً.

* المضمون كدليل للشكل: في المقابل، فإن المضمون الجيد هو الذي يوجه الشاعر أو الكاتب لاختيار الشكل المناسب. فالقضايا الكبرى والمشاعر العميقة تحتاج إلى أشكال فنية رفيعة وقوية، بينما قد تكون الأشكال البسيطة مناسبة للمواضيع الخفيفة.

يمكن القول إن نقطة انطلاق المبدع غالباً ما تكون هي المضمون بما يحويه من فكر أو عاطفة أو تجربة إنسانية، وهو المحرك الأساسي لعملية الإبداع ودافعها الأول. أما الشكل فهو نقطة وصول هذا الإبداع إلى المتلقي، ويلعب الدور الرئيس في وصول وتشكل هذا المحتوى في وعي المتلقي وفهمه له. وعليه، قد يكون المضمون أكثر قيمة للمنتج (المؤلف) لأنه نقطة البداية الدافعية والرؤية الأولية، بينما يكون الشكل أعلى قدرًا للمستقبل والناقد لأنه الوسيلة التي يتلقى بها العمل ويحلله ويفكك شفراته الجمالية. هذه الديناميكية بين الإبداع والتلقي تؤكد أن الشكل والمضمون ليسا متنافسين، بل هما متكاملان لاكتمال العملية الأدبية وتحقيق غايتها.

خاتمة:

في ختام هذا البحث، يتضح جلياً أن قضية الشكل والمضمون لم تكن مجرد جدل نظري عابر في الفكر العربي، بل كانت ولا تزال من أهم القضايا المحورية التي أسهمت في تشكيل الوعي النقدي والفلسفي والفني. لقد تتبنا جذورها العميقة التي تمتد إلى أصول فلسفية وعقدية قديمة، وكيف تطورت مصطلحاتها من "اللفظ والمعنى" إلى "الشكل والمضمون"، مع بقاء الجوهر الدلالي ثابتاً في جوهرها، وهو العلاقة بين المادة والروح، والظاهر والباطن، والوعاء والمحتوى.

لقد تنوعت آراء النقاد العرب حول هذه القضية، فمنهم من غلب جانب المضمون مؤكداً على قيمة الفكرة والمعنى والرسالة التي يحملها العمل الأدبي، ومنهم من شدد على أهمية الشكل باعتباره المظهر الجمالي الذي يبرز أصالة العمل الأدبي وفنيته، وهو الذي يمنحه القدرة على التأثير والإبهار. بينما سعى فريق ثالث إلى الموائمة والتكامل بينهما، مؤمنين بأن الشكل والمضمون وجهان لعملة واحدة لا يمكن فصلهما دون الإخلال بجمالية العمل وقيمتها الفنية والإنسانية. وقد أظهرت هذه الاتجاهات المختلفة ثراء النقد العربي وعمقه في تناول هذه القضية الشائكة.

إن العلاقة بين الشكل والمضمون هي علاقة ديناميكية تتسم بالتأثير والتأثر المتبادل، وليست علاقة جامدة أو أحادية الاتجاه. فالمضمون يجد تعبيره وصورته ووجوده الفني في الشكل الذي يختار له المبدع، والشكل بدوره يمنح المضمون وجوده وفاعليته الجمالية والدلالية، ويحدد مدى تأثيره في المتلقي. لا يمكن لعمل أدبي أن يرقى إلى مستوى الإبداع الحقيقي ويحقق الخلود إلا إذا امتزج فيه عمق المضمون (فكرة، شعور، تجربة) بجمال الشكل وإحكامه (صياغة، لغة، إيقاع، صور). فكما أن الروح لا تظهر إلا بالجسد، وكما أن الفكرة لا تتجسد إلا باللفظ والتركيب، فكذلك العمل الأدبي لا يكتمل ويؤدي رسالته الجمالية والفكرية إلا بتفاعل هذين العنصرين وتآلفهما العضوي

وختاماً، تظل قضية الشكل والمضمون دعامة أساسية في النقد الأدبي والفني، ليس فقط في تحليل الأعمال الأدبية القائمة، بل في فهم طبيعة الإبداع الفني نفسه وفي توجيه المبدعين. إن استيعاب هذه العلاقة المتشابكة يفتح آفاقاً أوسع للتقدير الجمالي والتحليل النقدي المتعمق، ويدعونا دائماً إلى البحث عن الانسجام والتكامل الأمثل بين الفكرة والصياغة، بين ما يُقال وكيف يُقال، وصولاً إلى المعنى الشامل والجمال الكلي للعمل الفني الذي يثري الوجدان والعقل.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1952.
- ابن رشيق القيرواني، الحسن. العمدة في صناعة الشعر ونقده. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار الجيل، 1972.
- ابن طباطبا العلوي، محمد بن أحمد. عيار الشعر. تحقيق عباس عبد الساتر. بيروت: دار الكتب العلمية، 1993.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله. الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1971.
- الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز في علم المعاني. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2004.
- الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، 2004.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1998.
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام. تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون. القاهرة: دار الفكر العربي، 1951.
- بدوي، عبده. التنظير النقدي الحديث في الأدب العربي. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1999.
- طبانة، بدوي. دراسات في النقد الأدبي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1969.

- خفاجي، محمد عبد المنعم. دراسات في الأدب والنقد. القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991.
- راضي، عبد الحكيم. من قضايا النقد العربي القديم والحديث. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988.
- تليمة، عبد المنعم. مدخل إلى نظرية النقد الأدبي. القاهرة: دار الثقافة، 1980.
- المعجم الأدبي. إعداد جبور عبد النور. بيروت: دار العلم للملايين، 1986.
- المراجع الأجنبية (للتوسع في الجذور الفلسفية والنقدية العالمية):
- Aristotle. Rhetoric. Translated by W. Rhys Roberts. Dover Publications, 2004.
- Shklovsky, Viktor. "Art as Device." In Theory of Prose. Translated by Benjamin Sher. Dalkey Archive Press, 1990.
- Wellek, René, and Warren, Austin. Theory of Literature. Harcourt, Brace & World, 1956.
- Gadamer, Hans-Georg. Truth and Method. Translated by Joel Weinsheimer and Donald G. Marshall. Continuum, 2004. (للمزيد عن الظاهريات والتأويل)
- Hegel, G. W. F. Lectures on Aesthetics. Translated by T. M. Knox. Oxford University Press, 1975. (لفهم العلاقة بين الفكرة والشكل في الفلسفة الجمالية)

- (¹) تفسير مقاتل بن سليمان - أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي - تحقيق: عبد الله محمود شحاتة - ج1 ص468 إلى ص470 - ط: مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، 1423هـ/ 2002م.
- (²) دراسات ومقالات في النقد.. منظور فلسفي، محمد شبل الكومي - ص12 - ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، 2008م.
- (³) فلسفة الظاهريات (الظاهراتية أو الفينومينولوجيا) هي مدرسة فلسفية تركز على دراسة الظواهر كما تظهر في التجربة الذاتية، بدلاً من التركيز على موضوعيتها أو جوهرها. تُعتبر أساسية في فهم كيفية ظهور الأشياء في وعينا، وكيف يتفاعل الإنسان مع العالم.
- وهي في ذلك شبيهة بما تنتجه القراءة الذاتية لكل قارئ لنص أدبي، حتى لو ابتعد عن مراد مُنتج النص الأدبي، وذلك قد يمثل محموداً من محاور ما يسمى بـ (موت المؤلف).
- (⁴) نظرات في الشعر العربي الحديث - عبده بدوي - ص141 - ط: دار قباء - القاهرة، 1998م.
- (⁵) الخطابة - أرسطوطاليس - تلخيص وشرح أبي علي بن سينا - تحقيق محمد سليم سالم - ص197 إلى 247 - ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة، 2009م.
- (⁶) نظرات في الشعر العربي الحديث - عبده بدوي - ص141 - ط: دار قباء - القاهرة، 1998م.
- (⁷) المعجم الأدبي - جبور عبد النور مادة (شكل) - ط2: دار العلم للملايين - بيروت، 1984م.
- (⁸) يراجع دراسات ومقالات في النقد.. منظور فلسفي، محمد شبل الكومي - ص91، 92 - ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، 2008م.....توسيع.
- (⁹) المعجم الأدبي - جبور عبد النور مادة (مضمون).
- (¹⁰) قضايا النقد الأدبي، بدوي طيبانه، مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ط2، (ص172).

- (¹¹) السابق، (ص172).
- (12) الخصائص - ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار - ج1 ص217 - ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.
- (13) المثل السائر - ضياء بن الأثير - ج2 ص65 - تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة - ط: دار نهضة مصر - القاهرة.
- (14) النقد العربي مداخل تاريخية حول اتجاهاته الأساسية نصوص بلاغية ونقدية قديمة وحديثة - عبد المنعم تليمة وعبد الحكيم راضي - ص208، 209 - ط: دار الثقافة للنشر والتوزيع - القاهرة، 1984م.
- (15) الحيوان - الجاحظ، تحقيق: محمد باسل عيون السود - ج3 ص67 - ط2: دار الكتب العلمية - بيروت، 1424هـ.
- (16) شرح ديوان الحماسة - المرزوقي - تحقيق: غريد الشيخ - ص22، 101، 347، 495، وغيرها - ط: دار الكتب العلمية - بيروت، 1424هـ / 2003م.
- (17) العمدة في محاسن الشعر وآدابه - بن رشيق القيرواني - تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد - ج1 ص126: دار الجيل، 1401هـ - 1981م.
- (18) الحيوان - الجاحظ ج3 ص67.
- (19) قضايا النقد الأدبي، بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، ط2، (ص187)، د.ت.
- كتاب الصناعتين، أبي هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبداهيم، دار: إحياء الكتب العربية، ط1، 1371هـ - 1952م، (ص58-59) 20.
- (21) تراجع شرح ديوان الحماسة - المرزوقي - ص8، 9 - دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ / 2003م.
- (22) تاريخ النقد الأدبي عند العرب - إحسان عباس - ص403 - ط4: دار الثقافة، بيروت، 1404هـ / 1983م.
- (23) العمدة في صناعة الشعر ونقده - ابن رشيق القيرواني - تحقيق النبوي شعلان - ص200 إلى ص203 - ط: مكتبة الخانجي - القاهرة، 1420هـ / 2000م.
- (24) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي - ج1 ص9 - ط6: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة - بيروت، 1405هـ / 1985م.
- (25) إشكاليات المصطلح الغربي في ثقافتنا المعاصرة - سمير حجازي - ص169 - ط: مركز الحضارة العربية - القاهرة، 2010م.
- (26) عيار الشعر، محمد أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ص8).
- (27) تراجع شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ص10، 11.